**الشيخ والبحر**

الأعمال الأدبيّة الباسقة هي ثمرة انتخابٍ شبيهٍ إلى حدٍّ بعيد بالاصطفاء الطّبيعي التّطوّري للكائنات، إنَّ ما يبثّ الحياة فيها ليس التّمكّن النّحويّ وسلامة المبنى وطلاوة الأسلوب وإنّما تلك البذرة الحيّة القابلة للنّمو، المزروعة في جسد النّصّ الأهيف، والمتوارية بإتقانٍ خلف جهارة الكلمات، ومن المجحف حكماً مقاربة مُنجز سرديّ دون الرّجوع إلى المرّحلة الزّمنيّة التي كُتب خلالها، فالرّواية كغيرها من الأجناس الأدبيّة خضعت خلال سيرورتها إلى تغييراتٍ مهولةٍ عابثت شروطها وخواصّها وقدرتها على البقاء والتأثير، إذ لم تعد المخيّلة الواقدة أو الحبكةُ الدراميّة المثيرة شرطاً كافياً، فالمشهد الحديث بات يتطلّبُ تحريك المياه الرّاكدة في العُمق، وابتكار الأسئلة الوجوديّة الخالدة، وذلك بعد أن تحوّلت وظيفة الأدب من استراحة إلى درس، وفي الرّجوع إلى كلاسيكيّات الرّواية العالمية تنتأ من كثبٍ روائعٌ أدبيّةٌ كالمفاصلِ في منحنى تطوّرها، "الشيخ والبحر" مثلاً واحدة من تلك الماسات الأدبيّة الإنسانيّة التي مهّدت الدرب أمام كاتبها الأميركي الروائي والقاصّ والصحفي إرنست ميلر هيمنغواي نحو جائزة "نوبل في الآداب"، وأثبتت بالدّليل الدّامغ أنَّ منجزاً مدهشاً واحداً قد يمسي أيقونةً وتاريخاً، خاصّةً وأنَّ صدورها في منتصف القرن العشرين تزامن مع تدفّق الرواية الكلاسيكيّة المخلصة لطبيعتها الحكائيّة النّمطيّة وترهّلاتها البنيويّة، في طيّات "الشيخ والبحر" من العمق والرمزية وتكثيف الدلالات ما يجعلها خطوة انتقالية حقيقيّة نحو مفهوم "الرواية الحديثة"، وذلك بما تحمله من رشاقةٍ واشتغالٍ على الذّات المأزومة وعلى الباطن المستخفي وتعقيداته، إنّها أشبه بضمّادة رقيقةٍ تحاوطُ النّفس البشريّة، تتنقّعُ بنزفها الأزليّ، وتردمُ مهاويها بأحجار المعنى.

"عجوزٌ تاعسٌ يُبحرُ مع قدره في رحلة صيد"... كان هذا كلّ المصرّح عنه، أمّا المستتر فقد روتهُ مساربُ العرق على الجلد الجعديّ، لربّما كان جهل الشعوب ببعضها البعض سببٌ أعظمٌ لتلك الصدامات الحضاريّة، في "الشّيخ والبحر" يدبّجُ لنا هيمنغواي كذبةً حكائيّةً تساوي تماماً الانعكاس الظلّيّ لصراعات النّفس البشريّة الواحدة، لن تسألَ وأنت المبحر معه "من أيّ شاطئٍ أتى؟!"، ولا " إلى أيّ شاطئٍ يسعى؟!"، إنّه يسحبنا جميعاً خلفه، إلى ذلك البحر الإنسانيّ الوسيع الذي يأوي الجميع ويبتلع الجميع، الرجل الذي سلك طريقهُ في أناةٍ بين القصّة القصيرة وبين الرواية علّمنا أن على الكاتب أن يبلَّ أنامله بماء الذهب قبل أن يمتشق قلمه، نلمس هذا في امتزاج موسيقا الحكاية متباينة الإيقاعات، نشعر به في وصفهِ لانعكاس الضّوء على فضّة الماء حدّ إغماض الأعين من شدّة الوهج المنبعث من الكلمات، نراه حين تغيب خضرة الشّاطئ عن مرمى البصر، ننأى معه إلى حيث تستحيل السّحبُ الخفيفةُ إلى جبالٍ سامقةٍ، إلى حيثُ يفغّمُ رئاتنا بعبقٍ جديدٍ، يصحبنا هيمنغواي إلى موعدٍ مع القدر، فنحسب أنّها سمكةٌ تقطرُ زورقاً، في حين نجدنا أمام الحياة بكلّيتها، حبلٌ من الألم يتنازعه طرفان، إنّه الكفُّ المدمّاة التي لا تُفلتُ ألمها.

ولد إرنست هيمنغواي عام 1899م ، امتاز بأسلوبه السّلس المؤثّر، لكن خيّمت على بداياته الأدبيّة سوداويّة جليّة، حاول أن يحتال عليها كثيراً وقتَ سلّط بصيرته على القوّة النفسيّة للإنسان الفرد، وهذا ما نلمسه بوضوحٍ في رائعته "الشيخ والبحر"، التي كتبها في هافانا / كوبا عام 1952م، صدرت أوّل أعماله الأدبيّة عام 1923م تحت عنوان "ثلاث قصص وعشرة أناشيد"، ومن أعماله التي لاقت رواجاً وقت إصدارها كانت "الشمس تشرقُ أيضاً" حيثُ تتبدّى لنا مساعيه في محاكاة الأمل، واستزراعه لأصابيح وضيئة في دكنة الواقع الثّقيل، نشر بعدها العديد من المجموعات القصصية مثل "الرجل العازب" و " وفاة في العشية"، وعلى خطى العديد من مرهفي الأدب الذين استهدفتهم سكاكين الحياة في قلوبهم تماماً، مات منتحراً عام 1961م ببندقيّة الصّيد التي أهداها له والده، والتي رافقته طيلة حياته كأنّما لتحرس قدره.

يعيد هيمنغواي في هذه القصّة بناء العالم على قطعة من قماش الخيال البسيط، حيث لا شرّ نقيّ ولا خير نقيّ وإنّما صعقات مجدولة بالنّقائض، يجهدُ في تغليب التأثير الشّعوري على تورّد الكلمات، ينحتُ من الخيبةِ درساً غائصاً حتّى قاع الدّلالات، ويوقدُ شُعلَ نارٍ في ثنائيّة النّصر والهزيمة المظلمة أبداً، هي حكاية عن الإرادة والقوّة المستترتين خلف متاريس الضّعف البشري، عن الرّفض الفطريّ للهزيمة، عن تمكّن الحسِّ المصقول من إيقاد النّار في إصقاع هذا العالم، عندما تقرأ ستسمع و لاشكَّ الأنغام المنبعثة من أوتار الروح المشدودة، ستفهم أنَّ الحياة قد لا تكون حظّاً خالصاً لكنّها حتماً رحلة استعدادٍ له، وأنَّ انتكاسة الجسدِ مهما بلغت إنّما تظلُّ من هيّنات الشّدائد، ستدرك الفرق بين ملاقاة البحر\_ و ما يقابله من معنى\_ كما لو كان رجلاً "ندّاً" وبين احتضانه كامرأةٍ، وهذا ينسحب على النظرة الشمولية لما يحاوطنا في أدقّ تفاصيله، إنّها الطبيعة الأنثى في سورة رقّتها، لن تقرأ دون أن يعتريك مسٌّ من الخلخلة، مع من ستتعاطف؟! هذا ما لن تدركه، ستجدّفُ معهُ فيما منجنيقات العواطفُ تصوّبُ نحو حياديّتك، سترجع معه كسيفاً، خفيفاً، مترعاً بكدماتٍ لامرئيّةٍ، ستتلامحُ نفسكُ قدّامك في كامل تجلّياتها، هذه الرّواية هي نحن في كلّ معركةٍ نخوضها... إنّها نحن كلّ يومٍ.